مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية | المجلد 14، العدد 1، (السداسي الأول 2022م)، ص. 449- 468

مقوّمات الحضارة وفق نظام السّنن الإلهية كما وردت في القرآن الكريم

The elements of civilization according to the system of divine traditions as mentioned in the Holy Qur'an

دنداني عبد العزيز*

جامعة وهران، كلية العلوم الإنسانية والعلوم الإسلامية، الجزائر،

dendaniabdelaziz10@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/12/28 تاريخ القبول: 2022/02/03 تاريخ النشر: 2022/03/31

ملخص:

يتميّز القرآن الكريم بالشّمولية والإحاطة بكلّ ما يتعلق بمناحي الحياة الإنسانية، لذلك تعدّدت مواضيعه وتنوّعت محاوره، وسنحاول من خلال هذا المقال أن نطرق محورا مهما من محاور القرآن الكريم المتعلقة بالحياة الإنسانية، وهو بيان القرآن الكريم لعوامل قيام الحضارات الإنسانية ومقوّماتها وفق نظام السّنن الإلهية، تلك القوانين التي لا تتبدّل ولا تتغيّر لأنّها تربط الأسباب بالمسببات وتبني النتائج على المقدمات، وتبرز أهمية البحث في أنّه جمع هذه المقوّمات وبيّن أثرها في قيام الحضارات محاولا الإجابة على تساؤل مهم: ما هي مقوّمات الحضارة وفق نظام السّنن الإلهية في القرآن الكريم؟ وعلى تساؤلات جزئية: ما مفهوم الحضارة ؟ وما هي السّنن الإلهية ؟ وما أهميّتها؟ متّبعا في ذلك المنهج التّحليلي لآيات القرآن الكريم.

الكلمات المفتاحية: الحضارة؛ السنن الإلهية؛ الإيمان؛ العلم؛ العدل.

Abstract:

The Holy Qur'an is characterized by its comprehensiveness everything related to the human life. Therefore, its topics and axes have varied. Through this article, we will try to touch upon an important axis of the Holy Qur'an related to human life, which is the statement of the Qur'an for the factors of establishing human civilizations and their constituents according to the system of divine Sunnahs. Laws that do not change because they link causes with causes and build results on premises.

---

* المؤلف المرسل

The importance of the research is that it combined these ingredients and their impact on the rise of civilizations, trying to answer an important question: What are the elements of civilization according to the system of divine laws in the Qur'an? And on partial questions: What is the civilization? What are the divine laws? And what is its importance? Following the analytical approach to the verses of the Holy Qur'an.

Keywords: Civilization; divine Sunnahs; Faith; Science; justice.

مقدمة:

لا شكّ أنّ المهتم بشأن السّنن الإلهية من جهة وبشأن تاريخ الأمم وقيام الحضارات من جهة أخرى سيلاحظ ذلك الترابط المتين بينهما، ذلك لأنّ قيام الحضارات واستمرارها يقوم على جملة من السّنن الإلهية كما أنّ أفولها وسقوطها يترتب على مخالفتها وتنكب طريقها، شكّل هذا الترابط محورا مهمّا من محاور القرآن الكريم ومواضيعه الكبرى، لأنّ كتاب الله عزّ وجلّ بما تميّز به من شمولية واهتمام بحياة الإنسان من كلّ جوانبها، سواء المادّية منها أو الروحيّة، قد أعطى لحضارة الإنسان – من جهة قيامها ورقيّها، ومن جهة زوالها وأفولها – أهميّة بالغة.

لقد ربط القرآن الكريم الأسباب بالمسببات وأقام النّتائج على المقدمات، من خلال منظومة السّنن الإلهية التي زخر بها، والتي حدّدت معالم قيام الحضارة الإنسانية بما اشترطته من أسس ومقوّمات تضمن لكلّ من حقّقها السّمو في سماء الرقيّ الحضاري مهما اختلف به الزّمان أو تباين به المكان، كما أنّها بيّنت أنّ كلّ من تنكّب سبيلها فإنّ مصيره إلى مهاوي الردّى وحفر الهلاك ثمّ إلى طيّ الأفول والزوال، ذلك لأنها لا تعرف تبديلا ولا تحويلا، ولا تختلف نتائجها ولا تتأخّر آثارها، وما أخبار الأمم التي قصّها القرآن الكريم عنّا ببعيد .

والقرآن الكريم حين بيّن هذه السّنن فإنّه قد زيّنها للنّاظرين وجمّلها للمتأملين في أبهى صورها وأجمل حللها، كيف لا وهو الصادق في أخباره العادل في أحكامه المنتظَم في سننه، وهو المصدر المعصوم الذي تضمّن كلام اللّطيف الخبير، اللّطيف بعباده والخبير بما يصلحهم "ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير" فخالق الأمم لا شك أنه أعلم بهم وبما يحقق رقيّهم وازدهارهم وهو أعلم أيضا بما يهوي بهم في دركات التخلف والاندثار .

إشكالية الدّراسة:

لمّا كانت الدّراسة ستتناول مقوّمات الحضارة وفق نظام السّنن الإلهية فإنّ إشكالية الدّراسة الأساسيّة هي: ما هي مقومات الحضارة وفق السّنن الإلهية في القرآن الكريم ؟ وهي تتضمن إشكاليات جزئية مثل: ما مفهوم الحضارة ؟ وما هي السّنن الإلهية ؟ وما أهميّتها ؟

هدف الدّراسة:

تهدف الدّراسة إلى بيان السّنن الإلهية التي تضمن قيام الحضارات وارتقائها من خلال النّظرة القرآنية.

أهميّة الدراسة :

تتجلّى أهميّة الدّراسة فيما يلي :

- بيان شمولية القرآن الكريم وأنّه يهتمّ بكلّ الجوانب المتعلقة بحياة الإنسان سواء المادية منها أو الروحية.
- ربط الأسباب بمسبباتها وبيان الأسباب الفاعلة لتحقيق النهوض الحضاري لدى الأمم.
- دعوة إلى تدبّر القرآن الكريم وتأمّله واستثارته لاستخراج كنوزه وأسراره.
- استثمار أخبار الأمم السّابقة وأخذ العبرة من قصصهم.

وقد تمّ البحث وفق الخطّة التّالية :

مقدمّة:

المبحث الأوّل: التّعريف بمصطلحات البحث

المطلب الأوّل: مفهوم الحضارة لغة واصطلاحا

الفرع الأوّل: مفهوم الحضارة لغة

الفرع الثّاني: مفهوم الحضارة اصطلاحا

المطلب الثّاني: مفهوم السّنن الإلهية

المطلب الثّالث: أهمية السّنن الإلهية

المبحث الثّاني: مقومات الحضارة

المطلب الأوّل: العقيدة الصّحيحة

المطلب الثّاني : العلم والعمل

المطلب الثّالث: تحقيق العدل

خاتمة: وتضمنت أهمّ نتائج البحث

المبحث الأوّل: التّعريف بمصطلحات البحث:

المطلب الأوّل: مفهوم الحضارة لغة واصطلاحا:

الفرع الأوّل: مفهوم الحضارة لغة:

بعد الرّجوع إلى معاجم اللغة العربية لتتبّع معاني مفردة الحضارة، وجدنا أنّ هذه المراجع على طبقتين :

الطّبقة الأولى: وتمثّلها المراجع الأصيلة، حيث تميّزت هذه المراجع بأنّها تفسر الحضارة بأنّها الإقامة في الحضر، وأنها ضد البداوة، ومن أمثلة ذلك:

ما جاء في معجم مقايّيس اللغة لأحمد بن فارس(ت 395 ه): "الحاء والضّاد والرّاء إيراد الشّيء وو روده ومشاهدته ... فالحضر خلاف البدو، وسكون الحضر الحِضارة "[1].

وما جاء في لسان العرب لابن منظور(ت.711ه): "والحِضارة الإقامة في الحضر، وكان الأصمعي يقول: الحَضارة بالفتح "[2].

وجاء في القاموس المحيط للفيروز آبادي(ت 817 ه): " والحِضارة – ويفتح - : خلاف البادية والحِضارة الإقامة في الحضر "[3].

يلاحظ على مراجع هذه الطّبقة أنّها لا تفرّق بين الحضارة بفتح الحاء أو كسرها، كما أنّها تفسّر الحضارة بالإقامة في الحضر وتجعلها ضد البداوة، غير أنّ بعضها ذكرت أمرا مهمّا له علاقة ببحثنا وهو ما جاء في معجم مقايّيس اللغة من الإشارة إلى أن من معاني الحضارة شهود الشيء وحضوره، كما ذكر في لسان العرب أنّ من معاني الحضارة الحضور وهو ضد الغيبة.

الطبقة الثانية: وتمثّلها المعاجم اللغوية الحديثة فقد أدخلت في مفهوم الحضارة ما استجدّ من مظاهرها ومن أمثلة ذلك: ما جاء في المعجم الوسيط:" الحضارة: الإقامة في الحضر، و- ضد البداوة، وهي مرحلة سامية من مراحل التّطور الإنساني، و- مظاهر الرّقي العلمي والأدبي والاجتماعي في الحضر (مج) "[4].

---

[1] أحمد بن فارس ، معجم مقاييس اللغة، 2 / 76/75.

[2] ابن منظور، لسان العرب، 3 / 215.

[3] الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص. 376.

[4] مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، ص 181. " و- تكرار الكلمة لمعنى جديد، (مج) أقرّه مجمع اللغة العربية " كما جاء في مقدمة المعجم.

ونظرا لتعلق بحثنا بالقرآن الكريم يحسن بنا أن نعرّج على بعض المؤلفات التي لها عناية بمفردات القرآن.

من ذلك ما جاء في المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: "الحضر: خلاف البدو، والحِضارة و الحَضارة السكون بالحضر"[1].

من خلال ما جاء في معاجم اللغة العربية من معان ودلالات لمفردة الحضارة فإنّنا نلاحظ أنّها تضمنت أمورا ثلاثة و هي: "الاستقرار في المكان... الحضور في مقابل الغياب... الحضور بمعنى الشّهود .."[2].

وهذا ما يدلّ على ارتباطها بالمكان وشهود أحداث الحياة، بخلاف ما يكون من أهل البدو لأنّهم لا ارتباط لهم بمكان معيّن، ولا مشاهدة لهم لما يحدث في دواليب الحياة، ولأنّ الحضارة والبداوة ضدّان لا يجتمعان.

الفرع الثّاني: مفهوم الحضارة اصطلاحا:

يرتبط مفهوم الحضارة في الاصطلاح بالمفهوم اللغوي ارتباطا وثيقا، كما أنّه يرتبط أيضا بمظاهر الحضارة وبالعناصر المشكّلة لها والفاعلة فيها، ومن خلال النّظر في التّعاريف الاصطلاحية للحضارة نجد تباينا واضحا بينها، والسّبب في ذلك يعود إلى اختلاف أصحاب التّعريفات في منطلقاتهم العلمية وخلفياتهم الفكرية ونظرتهم إلى مظاهر الحضارة والعناصر المؤثّرة فيها[3].

وقد اخترنا بعض النّماذج من هذه التّعريفات لأهميتها، ونبدأ بتعريف ابن خلدون (ت.808هـ) حيث عرّف الحضارة بأنّها "التّفنن في التّرف واستجادة أحواله، والكَلف بالصنائع التي تؤنَّق من أصنافه وسائر فنونه "[4].

وقد عرّفها ول ديورانت في موسوعته الضخمة بأنّها "نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزّيادة من إنتاجه الثقافي "[5].

كما عرّفها مالك بن نبي بتعريفين مختلفين ينطلق في كل تعريف من اعتبار معيّن.

---

[1] الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص. 241.

[2] عبد الله بن حمد العويسي، مشكلة الحضارة دراسة نقدية في ضوء الإسلام، ص. 49 باختصار.

[3] ينظر: نصر محمد عارف، الحضارة – الثقافة – المدنية " دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم "، ص. 55، وينظر : محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن ، ص. 19 ،فقد أشار إلى هذا الاختلاف بقوله " على أنّي لم أقف إلى الآن على تعريف علمي دقيق، على الرغم من كثرة ما ظهر من كتابات مختلفة عنها – أي الحضارة – "

[4] عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، 2 /47

[5] ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي محمود، 1 /3.

باعتبار ثمرتها أو وظيفتها: عرّفها بأنّها: "نتاج فكرة جوهرية تَطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التّحضر الدّفعة التي تدخل به التّاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنّموذج الأصلي لحضارته"[1] .

وبأنّها: "جملة العوامل المعنوية والمادّية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفّر لكل عضو فيه جميع الضّمانات اللازمة لتطوره. "[2]

وباعتبار عناصرها: فهي عنده تتكون من ثلاثة عناصر: "الإنسان، التراب، الزمن"[3]، وقد شرحها وبيّن دورها في كتابه شروط النّهضة .

وإذا أردنا الوقوف على هذه التّعريفات فإنّنا نجد أنّ ابن خلدون يعرف الحضارة بمظاهرها، ويكاد يحصرها في العمران، ويجعل التّرف من نتائجها ويربطها بالعمران في علاقة مطّردة فكلما كان العمران أكمل كانت الحضارة عنده أكمل.

أما ديورانت فقد حجّم معنى الحضارة وقصرها على النظام الاجتماعي فقط مهملا بذلك كافة الجوانب التي تعدّ من مظاهر الحضارة وثمراتها كالصّناعات والتّعليم والعمران وغيرها.

أما مالك بن نبي فإنّه قد عرف الحضارة بالنظر إلى مكوناتها من جهة وبالنظر إلى وظيفتها من جهة أخرى فالتّعريف الأوّل تركيبي والثّاني وظيفي.

التّعريف المختار:

يمكننا أن نختار التّعريف الوظيفي للحضارة الذي قدّمه مالك بن نبي مع تعديله بعض الشيء ليصبح تعريف الحضارة شاملا، فالحضارة هي: "**جملة العوامل المعنوية والمادّية التي تتيح لمجتمع ما حياة أرقى وأفضل** "

فقولنا: جملة العوامل المعنوية والمادّية يندرج فيه كل ما من شأنه أن يكون عنصرا فعّالا في الحضارة مثل: الإنسان أو الدين أو العلم.

وقولنا: المجتمع لِيدلّ على أنّ الحضارة نظام اجتماعي لا فردي يساهم فيه كل أفراد المجتمع.

وقولنا: حياة أرقى وأفضل نعني به نتاج الحضارة وثمرتها، وهو التّطور والرّقي في جميع مجالات الحياة.

---

[1] مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة : بسام بركة و أحمد شعبو، ص41.

[2] نفس المصدر، ص. 42.

[3] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص. 50 وما بعدها.

المطلب الثّاني: مفهوم السّنن الإلهية:

لا شكّ أنّ مصطلح السّنن الإلهية هو مركّب وصفي، يصف السّنن بأنّها سنن إلهية، ولبيان مفهومه لابدّ من بيان مفهوم كل مفردة على حده، وطلبا للاختصار وتجنبا لإعادة ما أورده الباحثون فإنّنا سنتجاوز هذه المرحلة، ذلك لأنّ كلمة السّنة لها معان كثيرة في لغة العرب، أمّا اصطلاحا فمدلولها متشعب جدّا نظرا لدوران هذه الكلمة في أبواب كثيرة من العلم، كعلم الحديث وعلم الفقه وأصوله وعلم العقائد والتّشريع ففي كل فنّ تأخذ معنى معينا يختلف عن غيره.

فحسبنا أن نأخذ من معاني السّنة في اللغة ما تكاد تتّفق عليه جميع المراجع اللغوية وهو استعمال السّنّة بمعنى الطريقة وما يدور في فلكها كالسّيرة أو العادة أو السّلوك[1]، وهو ما يقرب من المعنى الاصطلاحي.

وحينما ننتقل إلى المركب الوصفي، وصف السّنن بأنّها إلهية، فإنّها تكتسب معنى جديدا أشار إليه ابن منظور في اللسان والرّاغب في المفردات ، يقول ابن منظور: "سنّة الله : أحكامه وأمره ونهيه سنّها الله للنّاس أي بيّنها وسنّ الله سنّة أي بيّن طريقا قويما"[2].

ويقول الرّاغب الأصفهاني: " وسنّة الله قد تقال لطريقة حكمته أو طريقة طاعته"[3].

السّنن الإلهية اصطلاحا:

إذا أردنا بيان المعنى الاصطلاحي للسّنن الإلهية فإنّنا نجد أنفسنا أمام كمّ هائل من التّعريفات المختلفة[4] الذي يرجع أساسا إلى اختلاف زوايا النّظر من قبل معرّفي المصطلح[5].

فمنهم من نظر إلى مصدر السّنن وغاية حدوثها، فغلب على تعاريفهم استخدام ألفاظ كفعل الله وحكمه ومشيئته وشريعته وحكمته وقدره وكلمته وأمره وإرادته...

---

[1] ينظر: أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، 12 /301.

وينظر: الفيروزآبادي، مرجع سابق، ص1207، ابن منظور، مرجع سابق، 6 /399.

[2] ابن منظور، مرجع سابق، 6 /399.

[3] الراغب الأصفهاني، مرجع سابق، ص. 322.

[4] ينظر : عمر حيدوسي، السّنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، فقد ذكر الباحث ما يربو عن سبعين تعريفا للسّنن الإلهية.

[5] ينظر: عبد العزيز برغوث، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية، ص. 15.

ومن هذه الزاوية عرّفها مجدي عاشور: "السنّة ما اطّرد من **فعل الله** في معاملة الأمم والأفراد، بناء على أعمالهم وسلوكهم ومواقفهم من شرع الله وأثر ذلك في الدنيا والآخرة"[1].
وعرّفها ابن تيمية بقوله: " السنّة الإلهية **حكم** الله في الأمور المتماثلة "[2]

ومنهم من نظر إلى لزوم حدوث السّنن وصرامتها بما يجسّد قانونيتها فظهر في تعاريفهم مصطلح القانون وما إليه.

ومن هذه الزّاوية عرّفها الدكتور عبد الكريم زيدان بأنّها: "**القانون** الذي يتعلّق بخضوع البشر له باعتبارهم أفرادا وأمما وجماعات "[3].

ومنهم من نظر إلى تكرّر حدوث السّنن الإلهية وتماثلها في النتائج، بما يجعلها طريقة مُتّبعة، فغلب على تعاريفهم مصطلحات الطريقة و السّيرة و المنهج والنّهج، ومن هذه الزاوية عرّفها صالح أحمد الخطيب بقوله: "السّنّة الإلهية **منهج** الله تعالى في تسيّير هذا الكون وعمارته وحكمه، وعادة الله في سير الحياة الإنسانية وعادته في إثابة الطّائعين وعقاب المخالفين، طبق قضائه الأزلي على مقتضى حكمته وعدله "[4].

التّعريف المختار:

إذا أردنا أن نصوغ تعريفا شاملا لمختلف زوايا النظر للسنن الإلهية، فلا نجد بدّا من تعريفنا للسّنن الإلهية بأنّها : " **مجموعة القوانين التي أقام الله سبحانه عليها الكون وفق نظام عامّ واطّراد تامّ** "

فيكون هذا التعريف شاملا لخصائص السنن الإلهية، مراعيا جميع زوايا النّظر، فهي قوانين عامة مصدرها الله تعالى، أقام عليها الكون بكل مفرداته المادية والمعنوية، حيث لا يختل شيء من هذه المفردات لأنّها قامت وفق نظام تامّ لا يفرق بين المتماثلات ولا تختلف نتائجه، حيث النّتائج مبنية على المقدّمات والمسبّبات مرتبطة بالأسباب.

---

[1] مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، ص36.

[2] ابن تيمية، جامع الرسائل، ج1 ص 55.

[3] عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات، ص12.

[4] شريف الشيخ صالح الخطيب، السنن الإلهية في الحياة الإنسانية ، ص 76.

المطلب الثّالث: أهميّة السّنن الإلهية:

سنن الله تعالى التي بيّنها الله في القرآن الكريم، أو بيّنها الرسول ﷺ جديرة بالدراسة والفهم، بل إنّ دراستها وفهمها من الأمور المهمّة جداً والواجبة ديانة، لأن معرفتها معرفة لبعض الدّين ومن الواضح أنّ أحوال الأمم مع أنبيائهم هي من جملة الدين، هذه الأحوال تعني ما جرى لهم مع أنبيائهم وما حلّ فيهم بسبب سلوكهم معهم وموقفهم منهم وفقاً لسنّة الله[1]، هذه المعرفة ستثمر ثمرات جليلة أهمها:

أولا: أخذ العبرة من مصير الأمم السابقة، وهذا من أهمّ ما يميز مسألة إدراك السّنن الإلهية، لأنّه ما من أمّة إلاّ وقد سبقتها أمم قبلها، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران،137)، منها من خالفت سنن الله تعالى فكان ما حلّ بها من سقوط وفناء بسبب ما كسبت أيديها، ومن تأمل القرآن الكريم سيجده قد ذكر مصائر الأمم وما حلّ بالحضارات السابقة من تطور وازدهار أو تدهور واندثار، كلّ ذلك وفق نظام السنن الإلهية الذي لا يتبدل ولا يتحول ولا يحابي أحدا، فمن أراد تجنب مصير الهلاك والزّوال وحلول العقوبات الربانيّة فما عليه إلاّ أخذ العبرة من مصير الأمم السابقة، فهذه أمّة اليهود بعد أن ذكر الله تعالى ما حلّ بهم من دمار، حتى خرّبوا بيوتهم بأيديهم أمرنا بأخذ العبرة من ذلك فقال: ﴿ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ ﴾ (الحشر، 2).[2]

ثانيا: إدراك حكمة الله تعالى وغايته من خلق هذا الكون وتسيّيره وفق نظام السّنن الإلهية " فإنّ وجود قوانين تحكم سير الجماعات البشرية بضبط ودقّة وانتظام دليل على وجود غاية من وراء خلق هذا الكون واستخلاف الإنسان فيه كما أنّه دليل على انتفاء العبثية في الكون والخلق بأكمله "[3]، وهذا ما يقود النّفس إلى الجدّية في العمل واستشعار روح المسؤولية الفردية والجماعية، فلو لم يدرك العبد هذا النظام والاتقان وهذه الغاية من خلق الكون لكان إلى العبث والسخرية أقرب منه إلى الجدّية والصرامة في حياته .

[1] ينظر: عبد الكريم زيدان، مرجع سابق، ص.14

[2] ينظر: ذو الكفل بن الحاج محمد، السّنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، ص. 16.

[3] نفس المرجع، ص. 15-16

ثالثا: اليقين في الله والطمأنينة إلى أحكامه، وهو أثر نفسي بديع يبعث في النفس الطمأنينة والسكون، لأنّ النّظر إلى القانون المطّرد الذي يسير عليه هذا الكون حيث لا تختلف نتائجه ولا تختل، يؤدي إلى اليقين التامّ في الله تعالى، كما أنّ النّظر إلى تلك المقدمات التي تؤدي إلى نفس النّتائج في كلّ الأحوال يبعث في النّفس الطمأنينة إلى أفعال الله تعالى وأحكامه لأنه يجازي العباد بما كسبت أيديهم، فمن استحق الرفعة رفعه ومن استحق الهوان أهانه، وماله من الله من مكرم[1].

رابعا: تفسير التاريخ تفسيرا صحيحا مبنيّا على قواعد واضحة وأسس بينة، وذلك باستقراء السّنن الإلهية في الأمم والمجتمعات، ومعرفة أسباب قيامها أو زوالها، وقد تنبه كثير من العلماء والباحثين إلى هذه الأهمية البالغة في دراسة السنن الإلهية – أي التفسير الصحيح للتاريخ - فاعتنوا بها وأفردوها بالدّراسة والتّأليف من أمثلة ذلك: "تفسير التاريخ " لعبد الحميد صديقي، "التفسير الإسلامي للتاريخ" للدكتور عماد الدين خليل و"تفسير التاريخ علم إسلامي "للدكتور عبد الحليم عويس، وهناك طائفة أخرى من العلماء اعتنوا بهذه الأهميّة ضمن مؤلفاتهم مثل ما فعل رشيد رضا في "تفسير المنار"، أو الطّاهر بن عاشور في " التحرير والتنوير" أو سيد قطب في " في ظلال القرآن "[2].

المبحث الثّاني: مقوّمات الحضارة:

المطلب الأوّل: العقيدة الصّحيحة:

قد لا نكون مبالغين إذا قلنا: لا تخلو حضارة من الحضارات من ملامح دينيّة قامت عليها، فارتباط الحضارات بالدّين أم مشهور عند الباحثين، وقد أشار إلى هذه الحقيقة مالك بن نبي في كتابه شروط النّهضة ، تحت عنوان: أثر الفكرة الدّينية في تكوين الحضارة[3]، حيث ضرب أمثلة كثيرة من خلال التاريخ ونقل شهادات عديدة عن باحثين غربيّين تؤيّد صدق هذه القضيّة، لكنّنا عند النّظر والتأمل نجد أنّ هذه الحضارات لم يكتب لها البقاء، والسّبب في ذلك أنّها لم تكن على الدّين الصحيح، بل قد بيّن القرآن الكريم أنّ حضارات كبيرة قد زالت وانتهى وجودها بسبب خروجها عن الدّين الصحيح.

---

[1] نفس المرجع، ص. 18.

[2] ينظر: حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، ص.56.

[3] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص61. وما بعدها.

إنّ القرآن الكريم حينما يتحدث عن الحضارات من جهة قيامها واستقرارها وتمكينها في الأرض فإنّه يجعل العقيدة الدّينية الصّحيحة أهمّ العوامل في ذلك[1]، يقول الله تعالى: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝ ﴾ (النور، 55) وقال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ۝ ﴾ (الأنبياء،105)، واضح هنا أنّ الإيمان شرط التمكين والاستخلاف في الأرض وبسط الأمن بعد الخوف، والأمن كما هو معلوم يُعدّ من أهمّ عوامل الاستقرار قال الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ۝ ﴾(الأنعام،82)، واستتباب الأمن يساعد على تحقيق العبادة التي هي من أهمّ ثمرات العقيدة الصّحيحة كما قال الله تعالى: ﴿ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝ ﴾ (قريش، 2-4).

والإيمان الذي يؤكّد عليه القرآن هو الإيمان الصّحيح المثمر للسلوك الصّحيح، لا مجرد الشعارات الفارغة والأماني الكاذبة، الإيمان الذي يثمر التغيّير قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ ﴾ (الرعد، 11).

وتبدأ الرّحلة الإيمانية الصحيحة من المحطّة الأولى وهي: نظرة الإنسان لنفسه من جهة أصله، لتمرّ بعد ذلك عبر عدة محطات أهمّها نظرته إلى الغاية التي خلق من أجلها، ثمّ علاقته بالكون من حوله ثم نهايته وتحوله من هذه الحياة .

بدأت رحلة الإنسان على هذه الأرض بآدم عليه السلام، الذي أنزله الله تعالى إلى الأرض ليجعله خليفة فيها وضمن له الحياة الهنيئة إن هو حقّق الإيمان الصّحيح قال الله تعالى: ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ۝ ﴾ (طه،123) وسخّر له الكون من أجل أن يحقق الغاية التي خلق لها وهي العبادة وتحقيق التوحيد على الأرض، واشترط عليه أن يزكي نفسه ويستعلي بها عن الحياة البهيمية وربط فلاحه بهذه التزكية، قال الله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝ ﴾ (الشمس، 14).

[1] ينظر: أحمدمعاذ علوان حقي، أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية، ص 19.

ولهذه التّزكية ثمرتها في بناء الحضارة، يقول البوطي رحمه الله: "وليست تزكية النّفس بدورها إلاّ الشّرط الأساسي لتحمّل الإنسان مسؤولياته الحضارية بصدق وجدّ... فبمقدار ما تتزكى النفس وتصفو كدورات الأهواء، والرعونات، يخلص صاحبها في تحمّل كلّ ما يجب أن يتحمله في سبيل بني جنسه من المهامّ والواجبات المختلفة، وبمقدار ما تنطوي تلك النّفس على شوائبها ورعوناتها، يغدو صاحبها مجرّد أداة للإفساد في الأرض، ولإهلاك الحرث والنّسل، ابتغاء مصالحه، وأهوائه الشخصية، ...إذاً فالوظيفة التي يحملها القرآن للإنسان في الحقيقة، إنّما هي عمارة الأرض"[1].

وإذا أدرك الإنسان هذه الحقيقة وأنّه مستخلف في الأرض لعمارتها وفق النّظام الرباني، لابدّ عليه أن يدرك الحقيقة الأخرى وهي قيمة الكون من حوله. فالكون من حوله مسخّر من أجله ليستعين بمفرداته في بناء حضارته والاستمتاع بما فيه، كما قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الجاثية، 12-13).

أمّا الحياة الدنيا فلا بدّ من نظرة صحيحة إليها، فهي التي تشكل الوعاء الحضاري ومضمار العمل والسبق، وليست هي الغاية التي تستحق أن يحاول الإنسان الانفراد بها فيقتل أخاه من أجلها لأنّه ببساطة لن يخلد فيها، قال الله تعالى: ﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ ﴾ (الحديد، 20).

وحتى لا ينحرف الإنسان في نظرته إلى هذه الأمور المهمة فإنّ الله تعالى لم يتركه وحده بل أرسل إليه الرسل وأنزل عليه الكتب لترافقه في هذه الحياة واتفقت الرسل جميعا على البدء في دعوتها لأقوامها بالعقيدة الصحيحة قال الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾(النحل،36) واتفقت الرسل جميعا على تصحيح نظرة الإنسان إلى الحياة الدنيا وكأنّهم يقولون جميعا: ﴿ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ ﴾ (غافر، 39).

[1] محمد سعيد رمضان البوطي، مرجع سابق، ص 24 باختصار.

فلا شكّ أنّ العقيدة الصحيحة في الإنسان والكون والحياة تشكّل الدافع الثلاثي لقيام الحضارة التي يريدها القرآن، إنسان يدرك أصله والغايّة التي خلق من أجلها ويدرك أنّ علاقته بأخيه الإنسان هي علاقة قائمة على رابطة جمعية وفق مصالح مشتركة تدفع عن النّفس العدوان والطغيان، سينجح لا محالة في تحقيق البناء الحضاري المنشود .

وهذا التّصور الاعتقادي الصحيح "هو محرّك لعوامل الدَّفع الحضاري وحادي سيرها وهو روحها فتعست الحضارة التي لا روح فيها، ولئن كانت الحضارة جسداً، فروحها الإيمان، ولا حياة لجسد بلا روح ولئن كانت الحضارة أفكاراً، فلبّ أفكارها وجوهر معدنها هو التصور الاعتقادي الصحيح الذي يلهم أفكارها ويبلور خططها، وبه تنظر الحضارة إلى مستقبلها"[1].

وحينما تختل هذه المنظومة العقدية الصّحيحة فلا مجال لبقاء الحضارة إطلاقا لأنّ الهلاك والدمار سيحلّ بالأمم، وقد بيّن القرآن الكريم هذه السّنة الرّبانية غاية البيان، فكلّ أمّة تنحرف عن طريق الإيمان لتسلك طريق الكفر والطغيان فمصيرها الزوّال والاندثار قال الله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا قَرۡيَةٗ كَانَتۡ ءَامِنَةٗ مُّطۡمَئِنَّةٗ يَأۡتِيهَا رِزۡقُهَا رَغَدٗا مِّن كُلِّ مَكَانٖ فَكَفَرَتۡ بِأَنۡعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلۡجُوعِ وَٱلۡخَوۡفِ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ ١١٢ ﴾ (النحل،112)، وقال الله تعالى: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨ ﴾ (القصص، 58) وعن سبأ وحضارتها قال الله تعالى: ﴿ لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧ ﴾ (سبأ، 15. 17).

وإذا عدنا إلى قصص الأنبياء مع أقوامهم وما حلّ بهم من هلاك ودمار فسنجد السّبب الرئيس في ذلك هو الشرك بالله تعالى وعدم الاستجابة لدعوة أنبيائهم، كما بيّنه القرآن الكريم في الكثير من الآيات[2].

[1] عمار أحمد بدوي، مقوّمات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، ص32.

[2] وحتى لا نطيل في سرد الآيات الكريمة نحيل إلى الدّراسة التي قام بها سعيد محمد بابا سيلا بعنوان: أسباب هلاك الأمم السّالفة كما وردت في القرآن الكريم والدراسة الأخرى بعنوان : سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم من تأليف حسن بن صالح الحميد.

المطلب الثاني: العلم والعمل:

من أهمّ المقوّمات الحضارية التي نوّه القرآن الكريم بمنزلتها في بناء الحضارات الإنسانية: العلم، لأنّ العلم هو مفتاح الحضارات ووسيلة بنائها، وهل يعقل أن تشيّد حضارة بلا علم؟ وحينما تحدّث القرآن الكريم عن الحضارة التي شيّدها داود عليه السّلام قال الله تعالى : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ۝٢٠ ﴾ (ص، 20) فلما ذكر الله تعالى أنّه أرسى ملك داود عليه السّلام ذكر أسبابه والتي تمثلت في أمرين اثنين وهما : الحكمة، وفصل الخطاب، والحكمة هي: الفهم والعقل والفطنة والعلم والعدل وإتقان العمل والحكم بالصواب[1].

وحينما نلقي نظرة تاريخية على الحضارات السابقة[2]، نجد أنّ العلم أدّى دورا كبيرا في بنائها وتشييدها فهذه حضارة الفراعنة وما خلفته من آثار ماديّة كالأهرامات والقبور وما حوته من أسرار وحسابات دقيقة هندسية وفيزيائية لا زال العلم الحديث إلى الآن يكتشف رموزها ويحلّ ألغازها وأحيانا يقف حائرا أمامها، لهو أكبر دليل على أهمية العلم في بناء هذه الحضارة، وعلى صعيد آخر فلننظر إلى الحضارة الإسلامية القائمة منذ مئات السنين، نجدها ما قامت إلا على ساق العلم، وما آثارها الماديّة إلا أكبر دليل على ذلك[3]، فهذه المدن العظيمة كبغداد والقيروان، وتلك القصور المشيّدة بالأندلس كقصر الحمراء، وتلك المساجد القائمة كقبة الصخرة وغيرها كيف ستقوم لولا العلوم الهندسية والفنون المعمارية، ومن جهة أخرى فلننظر إلى تراث الأمة العلمي وما خلفته من آلاف المجلدات في سائر العلوم الطّبية والرّياضية والفلكية والكيميائية وغيرها .

لقد أدّى العلم دورا كبيرا في نقل العرب من حياة الضياع والشّتات في صحراء قاحلة إلى تأسيس أكبر حضارة في التاريخ[4] لا تزال قائمة إلى الآن – وإن كان قد أصابها ما أصابها – حتى صار لهم في كل بقعة دخلوها معلما يدلّ على أنّهم مرّوا من هناك، وما هذه القفزة النوعية في حياة العرب إلا حينما استجابوا لنداء القرآن ودعوته إلى العلم، ولا عجب حينما نجد أنّ أوّل آية نزلت من القرآن الكريم تدعو إلى العلم وحتّى لا يطغى الإنسان ويصيبه

---

[1] وهبة الزحيلي، التفسير المنير ، مج 12 ص203.

[2] ينظر : عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، تحت عنوان نشوء الحضارات، ص81.

[3] لمعرفة المزيد عن آثار الحضارة العربية يرجع إلى كتاب المستشرقة الألمانية : زيغريد هونكه " شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في اوربة " فهو كتاب حافل بها .

[4] ينظر: مالك بن نبي، شروط النهضة، مرجع سابق، ص 90.

الغرور يربطه القرآن الكريم بخالقه ويذكره بأصله فيقول له الله خالقه: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ﴾ (العلق،1-2)، لأنّ الإنسان إذا نسي خالقه وتنكر لأصله أصابه طغيان العلم كما سنبينه.

ولمّا كان العلم بهذه المنزلة احتفى به القرآن الكريم فرفع من شأنه ومن شأن حامليه من العلماء، ودعا إلى طلبه والاستزادة منه، وقد جمع الإمام ابن القيم في كتابه العظيم مفتاح دار السّعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة تلك النّصوص التي تبيّن فضل العلم والعلماء.

والعلم الذي جعله القرآن الكريم مفتاحا للحضارات هو العلم المثمر للعمل وليس مجرد العلم الذي يحفظ في الصدور أو يكتب في السطور ثم لا يرى له أثر في الحياة وقد ذمّ الله تعالى من تكون هذه صفته قال الله: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ١٧٦ سَآءَ مَثَلًا ٱلۡقَوۡمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمۡ كَانُواْ يَظۡلِمُونَ ١٧٧ ﴾ (الأعراف، 175-177)، فهذا مثل ضربه الله تعالى لمن يترك العمل بعلمه، فلمّا لم يرتفع بعلمه كان في الحضيض وصار مثلا يضرب لكل من ترك العمل بعلمه، وهذا الهوان لا يصيب الأفراد فحسب بل يصيب الأمم أيضا فقد أهلك الله تعالى أمة بني إسرائيل وشتها في الأرض لأنها تركت ما تعلم من أحكام التوراة قال الله: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَكَفَّرۡنَا عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَلَأَدۡخَلۡنَٰهُمۡ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٦٥ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ مِّنۡهُمۡ أُمَّةٞ مُّقۡتَصِدَةٞۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ سَآءَ مَا يَعۡمَلُونَ ٦٦ ﴾ (المائدة، 65-66)

والعلم الذي يريده القرآن هو العلم الخادم للإنسانية وليس العلم الذي يهلكها ويبيدها مثل ما أفرزته الحضارة المادية من أسلحة للدمار الشامل كالنووي والبيولوجي والكيميائي الذي أذاق البشرية الويلات والنكبات، والعلم " إذا تخلّى عن رسالته وهدفه، أو صوّب في غير اتجاهه ووجهته فإنّه يصبح وبالاً على الإنسان، ودماراً للحياة ومعولاً من معاول الهدم في الحضارات وسبباً من أسباب انهيارها وعاملاً مساعداً في غياب شمسها،

وأفول نجمها، فكم دمّرت اكتشافات العلم الحديثة مدناً، وقتلت أبرياء، لأنّها كانت مكتشفات في اليد الآثمة، والخالية من التصور الاعتقادي الصحيح "[1].

المطلب الثالث: تحقيق العدل:

العدل هو الميزان الذي وضعه الله تعالى في الأرض قال الله: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾(الحديد،35) وعلى العدل أقام الله السموات والأرض قال الله: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ ﴾ (الرحمان، 7-9)، وأمر الله تعالى بالعدل أمرا عاما فقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ ﴾ (النحل، 90)، فكل أمّة امتثلت أمر الله تعالى وحقّقت العدل وأشاعته بين رعاياها لا تفرّق بين حاكم أو محكوم ولا بين قويّ أو ضعيف، أقام الله تعالى لها ملكها وثبّت حضارتها وأرسى دعائمها، وكلّ أمّة خالفت أمر الله في العدل كان مصيرها إلى الزوال ولم يبق الله لها ذكرا ولا أثرا، قال ابن تيمية : " فأمور النّاس إنّما تستقيم في الدنيا مع العدل الذي قد يكون فيه الاشتراك في بعض أنواع الإثم أكثر مما تستقيم مع الظّلم في الحقوق، وإن لم تشترك في إثم. ولهذا قيل: إنّ الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الظالمة ولو كانت مسلمة ويقال: الدنيا تدوم مع العدل والكفر، ولا تدوم مع الظلم والإسلام، وذلك أنّ العدل نظام كلِّ شيء، فإذا أقيم أمر الدنيا بالعدل قامت، وإن لم يكن لصاحبها من خلاق، ومتى لم تقم بالعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة "[2].

وقال أبو حامد الغزالي: "والسّلطان العادل من عدل بين العباد وحذر من الجور والفساد، والسّلطان الظالم مشؤوم لا يبقى ملكه ولا يدوم... فينبغي أن تعلم أنّ عمارة الدنيا وخرابها من الملوك، فإذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا "[3].

تلك هي سنّة الله تعالى في الأمم، من أقامت العدل أقام لها حضارتها ومن ظلمت وبغت أزال الله ملكها وأذهب حضارتها.

---

[1] عمار أحمد بدوي، مرجع سابق، ص 36.

[2] ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 28 ص84.

[3] أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد، ص. 172.

ولمّا كان هذا شان العدل فإنّ الله تعالى أم به خيار الناس، أمر به الأنبياء والمرسلين فقال لنبيّه داود عليه السّلام الذي آتاه الملك والحكم : ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ۝٢٦ ﴾ (ص، 26)، وقال لخاتم أنبيائه ورسله محمد ﷺ : ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعۡضِ ذُنُوبِهِمۡۗ وَإِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ۝٤٩ ﴾ (المائدة، 49).

العدلُ قاعدةٌ من قواعد الاستقرار وسببٌ من أسباب الديمومة والازدهار، له الأهميّة البالغة في حركة الحضارة ودوران عجلتها، فأيّ حضارة مهما زهت مظاهرها وتبهرجت أشكالها إن لم تقم على العدل، أو لم تنشر ألوية العدل فسيلعنها الناس، ولن تدوم بحال أبدا، وهل تظلّم البشرُ اليوم من شيء تظلّمهم من الحضارة المادية الزاهية في مظاهرها، والظالمة في فِعالها؟ لأنّها أذاقت المستضعفين الويل والشّرور.

والعدل مقوّم من مقومات الحضارة لأنه سيخرج من مدرسته أحرار الرجال تشمخ هاماتهم للسماء لا يخشون ظلماً ولا هضما، تصان حرماتهم فتنطلق قوافلهم في ركب البناء الحضاري، وتنساق مواهبهم بأريحية وحيويّة وينقّي العدل سرائر ضمائرهم ويسلُلُ سخيمة قلوبهم ويطمئنهم بما لهم وما عليهم[1].

[1] عمار أحمد بدوي، مرجع سابق، ص. 50-51-52. بتصرف واختصار.

خاتمة:

وبعد هذه الجولة في كتاب الله جلّ وعلا والتأمل في آياته العظيمة التي تبين مقوّمات بناء الحضارة الإنسانية نخلص إلى النّتائج الآتية:

1- القرآن الكريم كتاب عظيم حافل بكل ما تحتاج إليه البشرية في تنظيم شؤون حياتها.

2- مما حفل به القرآن الكريم تلك الأسس التي تقوم عليها الحضارة المؤهّلة للبقاء والمعصومة من الزّوال.

3- أهمّ هذه الأسس هو تحقيق العقيدة الصحيحة، فمن حقّقها تكفل الله بإقامة حضارته والحفاظ عليها أمّا من تنكب طريقها وأخلّ بها فإنّ مصيره الدمار والهلاك، لا يمكن أن يختل هذا القانون الربانيّ أبدا.

4- القرآن الكريم يجعل الإنسان مدركا لأصله وللغاية التي خلق لها كما يصحّح له نظرته إلى الكون وإلى الحياة.

5- الأمن والأمان شرطان ضروريان لبناء الحضارة الإنسانية، والإيمان كفيل بتحقيقهما، يحقق الأمن الفردي، كما يحقق أمن الجماعة بما جاء به من تشريعات.

6-العقيدة الصحيحة تورث العلم الصحيح المثمر للعمل، الذي بدوره يشكل عاملا مهما من عوامل بناء الحضارات.

7- تميزت الحضارة الإسلامية بتراث علمي غزير في شتّى المجالات شكّل رافدا مهمّا للحضارة الغربية.

8- كما تميزت أيضا بتراث مادي كبير لا زال قائما إلى الآن يشهد عل الحضارة العظيمة التي أسّسها المسلمون.

9- للعلم طغيان يؤدي إلى هلاك الأمم بدل رفعتها، لذلك وجب على الإنسان أن ينضبط في علومه بضوابط العقيدة الصحيحة.

10-العدل ميزان الله في الأرض وهو من أهمّ مقومات الحضارة، فالله تعالى يقيم الدولة العادلة وإن كانت ظالمة.

قائمة المصادروالمراجع:

- القرآن الكريم بالرسم العثماني.

1- ابن تيمية، جامع الرسائل، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط 1، دار العطاء، الرياض، 2001م.

2- ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ط 3، دار الوفاء، المنصورة-مصر، 2005م.

3- ابن منظور، لسان العرب، ط 3، دار إحياء التراث، بيروت، 1999 م.

4- أبو حامد الغزالي، التبر المسبوك في نصيحة الملوك، تحقيق محمد أحمد، ط1 ، المؤسسة الجامعية، بيروت، 1987 م.

5- أبو منصور الأزهري، تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، ط 1، الدار المصرية، 1976م.

6- أحمد بن فارس أبو الحسين، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، 1979م.

7- أحمد حقي، أثر الإيمان في بناء الحضارة الإنسانية، بحث منشور ضمن مجلة المنارة المجلد 12، العدد1، 2005 م.

8- الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط1، دار القلم، دمشق، 1412هـ.

9- الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق فريق قسم الرسالة، ط 8، مؤسسة الرسالة بيروت، 2005م.

10- حسن بن صالح الحميد، سنن الله في الأمم من خلال آيات القرآن الكريم، ط 2، دار الفضيلة الرياض، 2011م.

11- ذو الكفل بن الحاج محمد، السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي، العدد7، 1430ه.

12- زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب أثر الحضارة العربية في أوربة " نقله عن الألمانية : فاروق بيضون وكمال دسوقي، ط 8، دار الجيل بيروت، 1993 م.

13- شريف الشيخ صالح الخطيب، السّنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه، إشراف: عثمان عبد المنعم يوسف، جامعة أمّ القرى كلية الشّريعة والدراسات الإسلامية قسم العقيدة، السعودية، 1407ه/1987م.

14- عبد الرحمان بن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الله الدرويش، ط1، دار البلخي دمشق، 2004م.

15- عبد العزيز برغوث، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية، بحث منشور ضمن مجلة الفكر الإسلامي المعاصر مج 13 عدد 49، 2007م، ص.ص13-48 .

16- عبد الكريم زيدان، السنن الإلهية في الأفراد والأمم والجماعات، ط3، مؤسسة الرسالة، لبنان،2003 م.

17- عبد الله بن حمد العويسي، مشكلة الحضارة دراسة نقدية في ضوء الإسلام، رسالة دكتوراه إشراف: عمر عودة الخطيب، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، قسم الثقافة الإسلامية، السعودية، 1992م.

18- عماد الدين خليل، التفسير الإسلامي للتاريخ، ط3، دار العلم للملايين، لبنان، 1981م.

19- عمار توفيق أحمد بدوي، مقومات الحضارة وعوامل أفولها من منظور القرآن الكريم، رسالة ماجستير، إشراف: محسن الخالدي، جامعة النجاح الوطنية كلية أصول الدين بفلسطين 2005 م.

20- عمر حيدوسي، السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، أطروحة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص كتاب وسنة ،إشراف الدكتور: عبد الحميد بوكعباش، جامعة الحاج لخضر باتنة، قسم العلوم الإسلامية، السنة الجامعية:2012/2011م.

21- مالك بن نبي، شروط النهضة، ترجمة عبد الصبور شاهين، دار الفكر دمشق، 1986م.

22- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ترجمة : بسام بركة و أحمد شعبو ،ط1 ، دار الفكر، دمشق، 2004 م.

23- مجدي محمد عاشور، السنن الإلهية في الأمم والأفراد، ط1، دار السلام، القاهرة، 2006م.

24- مجمع اللغة العربية، إبراهيم أنيس وآخرون، المعجم الوسيط، ط 4، مكتبة الشروق الدولية، مصر، 2004م.

25- محمد سعيد رمضان البوطي، منهج الحضارة الإنسانية في القرآن، ط1، دار الفكر، دمشق، 1987م.

26- نصر محمد عارف، الحضارة – الثقافة – المدنية " دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم "، ط 2، المعهد العالي للفكر الإسلامي، فرجينيا و م أ، 1994 م.

27- ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة زكي محمود، ط 1، دار الجيل بيروت، 1988م.

28- وهبة الزحيلي، التفسير المنير ، ط 10، دار الفكر ، دمشق، 2009 م.